الحياة عادة

نلاحظ أن الذى يعتاد أن يتناول فى ميعاد معين قدحا من القهوة أو كوبا من الشاى أو غيرهما من المنبهات أو المخدرات مدة من الزمن لا يستطيع أن يؤدى عمله ولا أن يسلك السلوك الطبيعى فى حياته إذا لم يتناول ما اعتاد أن يتناوله فى ميعاده المعين ، وربما كان قد تناول هذه الأشياء فى أول الأمر على سبيل التسلية أو الترويح أو التقليد ، غير مصدق أنها ستصبح عادة له تتحكم فيه ، وتخل بنظام حياته الطبيعية إذا لم يخضع لحكمها !

وعادة المخدرات أو المنبهات هى التى تبدو لنا واضحة كمثل للعادة المتحكمة ، ولكن الواقع أن الحياة كلها عادة كبيرة بجميع ما فيها من الصغائر والكبائر ، وأن الفارق بين فرد وفرد أو بين شعب وشعب ، إنما هو مجموعة عادات تختلف فى هذا عن ذاك ، فتكون شخصية للفرد أو للشعب تختلف عن شخصية سواه .

والفرق بين الإنسان المهذب الراقى ، والإنسان الجلف المتخلف ، هو مجموعة عادات فى الحركة والكلام ومخارج الصوت والنظرة والإشارة وطريقة الأكل والشرب واللبس والجلوس والضحك . . . الى آخر الحركات اليومية التى يؤديها الانسان بحكم العادة وبدون انتباه فى غالب الأحيان .

وحقيقة أن هذه مظاهر خارجية ولكن لها دلالتها على الحقائق الباطنة فى النفس الإنسانية فهى تصدر عفوا بلا تفكير ولا تدبير فتدل على المعدن الأصيل لهذه النفس ، وقد يتناولها التكلف فيدل هذا التكلف نفسه على فقر النفس فى هذه الصفات المتكلفة وعلى أنها حديثة عهد بها ، ولكن هذا لا ينفى أنها حينما تزاول مدة كافية تصبح طبيعية ، وتترك آثارها فى الحياة الباطنة ، وتؤدى إلى التهذيب الحقيق بعد مدة طويلة أو قصيرة .

وقد قلنا إن عادة المخدرات والمنبهات وأمثالها ليست هى العادة المتحكمة الوحيدة ، وأن الحياة كلها مجموعة عادات . وهذا يلفت نظرنا الى وجوب الحرص على تكوين عادات صالحة لأولادنا ولأنفسنا منذ بدء الحياة ، فمعظم العادات يتكون فى سن مبكرة وعن طريق القدوة والتكرار فى وقت لم يتنبه فيه العقل ليوازن بين الصالح والفاسد منها ، أى أن معظم العادات يغزونا ونحن على غير استعداد فيترك فى حياتنا أثرا دائما لا حيلة لنا فيه ، أو يحتاج منا فى مقاومته حين نتنبه لخطره إلى مقاومة عنيفة قد نفلح فى نهايتها أو لا نفلح حسب تمكن العادة ومقدار ما فينا من قوة الإرادة (التى هى الأخرى عادة من العادات تربى وتنمى كثيرها من عاداتنا الكثيرة) .

وكلنا رأى بعض الناس الذين يلبسون ملابس وجيهة ويركبون السيارات فى بعض الأحيان . ثم يأتون مع ذلك بحركات قذرة سخيفة كالبصق على الأرض وفى جيوبهم المناديل أو وضع الاصبع فى الأنف ، أو التجشؤ بصوت مسموع فى وجوده الجالسين ، أو الضحك بطريقة خارجة ، أو التحدث بنغمة خاصة ، أو التفوه بالفاظ وتعبيرات وقحة . الى آخر أمثال هذه البسائط المؤذية التى لاتترك مجالا للشك فى البيئة الأولى التى نشأ فيها أمثال هؤلاء الوجهاء المزيفين وراء المظاهر ، والتى تدعو لسقوط كرامتهم مهما كانت هذه المظاهر !

وقد لا تصل العادات السيئة الى هذا المستوى من الانحطاط ولكنها تظهر مثلا فى عدم ضبط نبرات الصوت حسب المناسبات فى الحديث ، أو عدم مراعاة الأدب اللائق فى المخاطبة والرد بالإصغاء الى المتحدث وإفساح المجال لرأيه ما دام معقولا ومناقشته فى حدود الموضوع المعروض . . . وقد يبدو أن ليس للعادة أثر هنا ، ولكن الواقع أن هذه التصرفات مبنية على العادة المستقاة من القدوة فى البيئة التى ينشأ فيها الإنسان ، ويلتقط عاداتها بدون انتباه .

بعض الناس يلقاك فى الطريق فيسلم عليك كأنه يصارعك ، أو يلمحك ، من بعد فلا يستنكف أن يزعق عليك كالمصروع ، أو يحدثك فى مسائل خاصة بصوت كصوت الشجار غير ملق باله الى الركاب أو الجلاس من حولكما ، أو يمد يده ليتناول قلمك من جيبك ليكتب أو سيجارتك من يدك ليشعل سيجارته بكل بساطة ! ! ! فما الذى يحملهم على مثل هذه التصرفات ؟ إنها العادة بلا جدال .

وهذا الرجل الذى يغربل فى مشيته وهذه السيدة التى تتخلع فى سيرها ، وهذا الشاب المنحنى القامة ، وهذا الصبى الذى يظلع اذا سار . . . ثم هذا الذى يتحدث فيمضغ الكلمات ويخطف الحروف ، وهذه التى تقذف من فيها بالكلمات كالمدفع الرشاش . . . أو ذلك الذى يتفتف على وجهك لأنه يحدثك أو يزغدك عدة مرات لأنه يسترعى انتباهك ، أو يضع فمه على أذنك لأنه يسر إليك بالحديث وهو يرفع صوته فيسمع الجيران . . الخ . هؤلاء جميعا ما شأنهم ؟ انهم لم يجدوا من يقوم خطواتهم أو يهذب حديثهم ، أو يعودهم العادات الصحية والآداب المرعية ، فى مثل هذه التصرفات اليومية .

وهذه الأمثلة المبسطة تلفت نظرنا الى أثر العادات الصغيرة فى حياة الإنسان ومركزه وحكم الناس عليه ، فإذا ارتقينا منها الى ما هو أكبر منها وضح لنا هذا الأثر بارزا ملموسا ، ونحن نختار بضع طوائف من هذه العادات المتحكمة .

فالعادات الصحية كالنظافة والرياضة ، والصحو المبكر ، وانتظام التغذية ، إلى آخر هذه العادات ذات أثر حاسم فى الصحة الفردية والشعبية ؛ وجميعها تتكون بالمرانة والتعويد

فى سن مبكرة جدا أكثر مما يعتقد الكثيرون من الآباء والأمهات الذين لا يلتفتون الى أطفالهم الا بعد سن معينة ؛ بل إن بعضها ينشأ عن غير وعى بحكم المناظر التى تقع عليها عيون الأطفال وتألفها أنظارهم فى سن الطفولة الباكرة .

وكثيرا ما نرى الصبى الذى يصحو فى موعد معين كل يوم فيغسل يديه ووجهه ورأسه ورجليه بطريقة آلية وينظف طربوشه وبذلته وحذاءه بينما هو يفكر فى الدرس الأول، ويسير منتصب القامة متوسط السرعة، ويعود فى نهاية اليوم ليخلع ويغسل ويرتاض ثم ينام فى ساعة معينة أو يذهب إلى السرير لينام بعد غسل وجهه ورأسه . هذا الصبى لا يصنع هذا كله لأنه يدرك فائدته، والكل لأنه تعود فاعتاد . وكل منا يستطيع أن يتنبأ لمثل هذا الصبى بمستقبل طيب على الأقل من الناحية الصحية ، وهى ذات أثر عميق فى الحياة العقلية والنفسية ، وفى الحياة الاجتماعية كذلك .

ونحن نصف شخصا ما بأن ذوقه سليم . ونعنى بهذا ذوقه فى الألوان والروائح والطعوم وذوقه فى الجمال والفنون ، ثم ذوقه فى التصرفات الاجتماعية . وهذا الذوق هو ثمرة عادات خفية استقرت فى الحس والنفس منذ الطفولة ، حين وقعت عين هذا الطفل على مناظر متآلفة منسجمة ، واستمعت أذنه الى نغمات وأصوات لا نشاز فيها، ونشق أنفه روائح هادئة رقيقة ، واعتاد أن يرى من المحيطين به حركات وإشارات وانفعالات مهذبة فى مناسبات خاصة ، فانطبع هذا كله فى حسه ، وأصبح يسعفه فى المناسبات بدون كد ولا تعمل .

فاذا ارتقينا إلى الحياة العقلية والعملية والاجتماعية لاحظنا أن هناك أفرادا نسميهم أصحاب الشخصية القوية ، وأفرادا نسميهم ضعاف الشخصية . وأشخاصا محبوبين من الوسط وآخرين مكروهين ، وأناسا جادين فى حياتهم وآخرين هازلين . وجماعة يمتازون بالدأب وقوة الإرادة وآخرين متقلبين مضعضعين إلى آخر هذا الانماط التى لا تنتهى .

ولو رحنا نحصى الفوارق بين هؤلاء وهؤلاء لوجدناها فى النهاية مجموعة عادات تحدد تصرفاتهم فى وقت معين فتفترق بينهم الطريق . ولا نستطيع أن ننكر الوراثات والمواهب الطبيعية ؛ ولكن الوسط هو الذى يوجه هذه الوراثات والمواهب ، بتكوين عادات معينة هى التى تحدد الموقف طيلة الحياة .

خذ مثلا لذلك ما نسميه " القوة المعنوية " فما هذه القوة المعنوية ؟ إنها قوة الاحتمال والتماسك والرجاء فى حالات الخطر والضغط والشدة . وكيف توجد هذه القوة ؟ إنها توجد بعد مواجهة عدة حالات من الحرج فى وسط عائلى أو اجتماعى يملك أعصابه ويتحمل الكارثة حتى تمر... فالطفل الذى يرى أمه أو أباه أو أحد المشرفين عليه باستمرار يصرخ ويجزع ويفقد صوابه لأن النار قد شبت فى المنزل أو لأن حائطا انهار أو لأن أحد أفراد الأسرة

أصيب فى حادث ... لا يمكن أن ينشأ شديد القوة المعنوية ، بعكس طفل آخر تقع عينه فى مثل هذه الحوادث على ثبات وتماسك وتحمل ، فإذا فزع نهى عن هذا الفزع وأشعر بالطمأنينة والأمن ، فهذا هو الذى نسميه فيما بعد " رجلا ذا قوة معنوية " .

والولد المدلل الذى تجاب رغباته جميعا ، ويحس أن الكل فى خدمته ، وأن له حقوقا على الجميع ولا حق لأحد عليه ، وأنه يجنب جميع المتاعب والعراقيل ، وتمهد له شئون الحياة فى يسر ونعومة ... هذا الطفل لن يكون أبدا رجلا ذا قوة معنوية ، لأنه اعتاد ألا يواجه التبعات والأخطار ، فإذا واجهها فإما أن يلجأ إلى سواه ليحملها عنه وإما أن تخور قواه ويستسلم لدى الصدمة الأولى .

والحياة فى المجتمع . إنها كذلك عادة . فالولد الذى لم يتعود منذ نشأته أن يعامل الناس وأن يتحدث معهم ويجلس إليهم ويأخذ منهم ويعطى ، ينشأ خجولا مرتبكا ، جاهلا بالآداب الاجتماعية ، غريبا عن البيئة العامة وهو الذى نسميه فيما بعد (لخمة) أو شاذا ، والذى يحتاج — بعد أن يكبر — الى مجهود عنيف يبذله لمواجهة المجتمع الذى يعيش فيه ، وقد ينجح فى هذا المجهود أو يخفق حسب الظروف .

والمهم أن المعرفة النظرية لا تجدى دون المزاولة العملية ، فالطفل الذى يلقن أن يسلم على الضيوف مثلا دون أن يعتاد التسليم عليهم بالفعل لا يجيد ذلك ، والتسليم على الضيوف مثل صغير لبقية التصرفات الاجتماعية الكبيرة .

وهذا المثل يلفت نظرنا بشدة إلى الأخطاء الشنيعة التى نرتكبها فى إعداد شبابنا وشاباتنا للحياة العملية فى المستقبل .

فالمعروف أن الشاب المصرى لا يقل فى معلوماته — بل هو يزيد — عن زميله الأجنبى ولكنه لا ينجح فى الحياة نجاحه . لماذا ؟ لأن الطفل المصرى ثم الشاب المصرى ينشأ فى شبه عزلة اجتماعية عن الوسط الذى سيواجهه فى حياته العملية . فالمدرسة تحول بينه وبين هذا الوسط طيلة مدة الدراسة حتى فى المدارس العملية ، ولا صلة بينها وبين سوق العمل والتلميذ والطالب يبقى فى هذه العزلة مدة تتراوح بين عشر سنوات وخمس عشرة سنة ثم تقذف به الى المعترك بعد ذلك مجردا من جميع التجارب العملية والاجتماعية ، فيحتار ويرتبك فإما أن ينكص على عقبيه بعد ذلك يطلب الأمن والسلام فى دواوين الحكومة ، وإما أن يقتحم الميدان ولكن فى حذر وتردد يقعدان به عن مجاراة زميله الأجنبى الذى خبر الحياة وهو يتلقى الدروس بالمدرسة ، لأن تقاليد هذه المدرسة وتقاليد الأسرة التى يعيش فيها تساعدانه على الخبرة بالحياة .

وهذه الفتاة المصرية التى نترعها من حياة البيت انتزاعا مدة عشرة أعوام أو خمسة عشر عاما فى مدرسة لا صلة بينها وبين البيت ، ولا مشابهة بين جوها وجوه ، لا فى عمل ولا

فى مجتمع ولا فى مهانة ، ثم نطلب إليها بعد ذلك أن تعود الى البيت زوجة ، بعد ما اغتربت عنه هذه الغربة الناويلة المديدة. الغربة الروحية والغربه العملية والغربة الاجتماعية. ألا تكون متعبتين حين نطلب الى فتاة من هذا النوع أن تحيا وتتنفس فى هذا الجو الغريب .

الفتاة التى اعتادت أن تنهض فى الصباح المبكر فتنطلق الى الشارع ومنه الى المدرسة حيث تلتقى بعشرات الوجوه فى الطريق و بعشرات الوجوه فى المدرسة من زميلات ومدرسات ومدرسين ، ثم بعشرات الوجوه فى الكلية من زميلات وزملاء وأساتذة . حتى إذا عادت فى نهاية اليوم عادت مثقلة بالواجبات المدرسية فجلست إلى المكتب والكتاب ، أو ذهبت الى زيارة زميلة أو زميلات أو استقبلتهن للحديث فى الجو المدرسى والحياة المدرسية . فاذا كان يوم عطلة فهى فى رحلة مدرسية أو مشاهدة سينمائية أو مسرحية أو رياضة جماعية على كل حال .

هذه الفتاة بأى حق نستطيع احتباسها فى المنزل بعد ذلك زوجة مسئولة وربة بيت مفردة ، بعد هذا الضجيج وهذا الاختلاط وهذه الحياة الاجتماعية التى أصبحت عادة لها مدى خمسة عشر عاما كاملة .

وحين يصبح الصباح ولا تنطلق هذه الفتاة إلى الشارع فالى المدرسة كما اعتادت رجلاها أن تحملاها كل صباح . كيف تطيق الحياة وتصبر على هذا الحبس الفظيع ؟ ثم نطلب اليها بعد ذلك وفوق ذلك أن تشرف على بيت ، وأن تكون مسئولة عن أطفال ، وهى التى ظلت طفلة طول هذا الوقت معفاة من كل شؤون البيت لأن النجاح فى الامتحان العلمى النظرى والحصول على الشهادة المدرسية هو كل ما يطالبها به أهلها طيلة هذه السنوات .

يجب أن نحسب حسابا لهذه الصدمة التى تصيب كل فتاة وأن نعذر هؤلاء الفتيات اللواتى يحطمن أعشاشهن و يطرن منها فى العام الأول ، فهؤلاء فتيات لم نهيئهن نحن للاحتباس فى الأعشاش مهما كانت مغرية ، لأن سنى الدراسة طويلة ، والجو المدرسى بعيد كل البعد عن الجو العائلى ، والواجبات المدرسية ثقيلة لا تدع لهن وقتا للاشتراك فى الحياة المنزلية بعد المدرسة ، ومقتضيات الحياة فى المدارس جميعها تتنافر مع مقتضيات الحياة داخل البيوت .

وهناك الفتيات المدللات اللواتى قد اعتدن من أهليهن إجابة جميع رغائبهن بلا قيد ولا شرط بحجة أنها مطالب بريئة ، كما اعتدن ألا يعنين بأحد بينما تتوجه إليهن العناية من الجميع وألا يسألن عن شىء وسواهن يحتمل جميع التبعات .

هذا الصنف من الفتيات يفشل كل يوم أمام أعيننا فى الحياة الزوجية ذات التبعات الكثيرة ، لأنهن يصطدمن بإرادة أخرى غير إرادتهن و بمشكلات لم يعتدن مواجهتها من قبل ، و بتدبير منزل ورعايه أطفال ، و بعشرات من ملابسات الحياة اليومية مع الخدم

وغير الخدم ، ولا حيلة لمن فى هذا كله لأنهن لم يعتدن هذه الحياة . والعادة أقوى سلاح فى معترك الحياة .

والبيوت التى اعتادت أن تترك للمربيات والخدم الإشراف على أطفالها معظم ساعات اليوم ، إما لاعتقاد سيداتها أن هذا من مقتضيات الحياة الارستقراطية ، وإما لأنهن مشغولات بتفاهات الحياة عن الواجب العائلى المقدس وعن كل اهتمام صالح .

هذه البيوت لا تعرف ماذا تصنع بالجيل المقبل . لا تعرف أن هؤلاء الأطفال سيحصلون على عاداتهم المستحكمة التى تصرف حياتهم فى المستقبل من هؤلاء الخدم الذين نعرف درجتهم الاجتماعية . فان السيد فلان سيأخذ عاداته فى الحركة والحديث والإيماءة والإشارة والمشية والضحك من الخادم فلان ثم ينسب بعد ذلك للسيد فلان !

لا بل سيأخذ قاموسه اللفظى مما يسمع من الخادمات والخدم ، وستكون تعبيراته من بذىء التعبيرات والكنايات بينهم ، وستحتفظ واعيته الباطنة بكافة الإشارات الوقحة ، والحركات الساقطة والانفعالات القبيحة ، وحسبه أن يحمل من أبويه نسبته إليهما ولقبه الكريم ؟

هذه البيوت "الراقية" كما يسمونها ترتكب كل يوم مثل هذه الجريمة فى حق الجيل المقبل ، وتخرج للمجتمع أحط وأرذل الفتيات والفتيان ، الذين نشأوا فى أحضان الخدم ، واستقوا عاداتهم وألفاظهم وأخلاقهم من أقذر الطبقات الاجتماعية فى هذا البلد ، ثم تورثهم هذه البيوت ألقابها وأموالها وجاهها فتجعل لهم بذلك السيطرة على المجتمع ، وتجعلهم قدوة للآخرين ، وهم لا يملكون من هذه البيوت إلا اسمها ، أما نسبتهم الحقيقية فيجب أن ترد إلى طبقة الخدم المنحطين ؟

هذه هى الجريمة السافرة التى ترتكبها المرأة فى هذا الجيل و يرتكبها الرجل معها . وهى جريمة تقع مرة نتيجة للفهم الخاطئ لمقتضيات الارستقراطية الكاذبة . وتقع مرة نتيجة لمقتضيات العصر التى تبيح للمرأة المتزوجة أن تعمل فى الحياة العامة ، فتضطر حتما أن تكل شأن طفلها الى خادم أو خادمة (فليس عندنا مربيات بالمعنى المهذب المعروف) و ينشأ هذا الطفل سيدا فى مظهره خادما فى خلقه ونفسيته بحكم العادات التى أخذها بالقدوة و بالتلقين ؛

الحياة عادة . فلنجتهد ، أن نزود أطفالنا بمجموعة صالحة من العادات ، ندربهم عليها تحت إشرافنا بالقدوة و بالتلقين و بالممارسة . فهذه هى الأسس الثلاثة لتكوين العادات . والممارسة أهمها فالعادة لا تتكون الا بتنفيذ الانفعال وتكرار هذا التنفيذ حتى تثبت فى المجموع العصبى وتؤدى بعد ذلك بدون جهد بل بدون انتباه .

أما الذين فاتتهم هذه العادات فى دور الطفولة ، فلا ييأسوا ، وانهم ليستطيعون أن يحصلوا على مجموعة من العادات الطيبة ولكن بعد الجهد الطويل .

الانتفاع بالعقل

بقلم الأستاذ صلاح الدين الأيوبى

وكيل ادارة البيع والرهن بوزارة التجارة

من أفيد وأمتع الدراسات الوقوف على نظريات العقل الحديثة التى بزغت بها أبحاث العالم النمسوى سيجموند فرويد الذى يعتبر أول من درس العقل ، وأبحاث من تبعـــه من تلاميذه فى مختلف البلدان الذين تناولوها بالشرح والنقد والتعليق .

ومؤدى هذه الأبحاث أن لكل إنسان عقلين : أحدهما هو العقل الواعى الذى تقرأ به هذه الصحيفة ، فتعى شكلها وشكل الحروف المرسومة عليها والمكان الذى أنت فيه الآن ، وما هو موزع فى هذا المكان من أشياء أو أثاث أو خلافه .

ومن هذه الأشياء ما تعى به بجلاء ووضوح مثل معانى الكلمات التى تقرأها فى هـذا المقال، ومنها مالا تعى به بهذا الجلاء والوضوح، مثل دقات الساعة إن وجدت فى الغرفة، أو شكل الستائر المسدلة على نوافذها ، أو ألوان الصور المعلقة على حوائطها ، فكل هـذه الأشياء تعتبر واقعة فى مجال وعيك ، غير أن الأشياء التى تعى بها بجلاء ووضوح تعتبر واقعة فى بؤرة هذا المجال ، والأشياء التى لا تعى بها بجلاء ووضوح تعتبر واقعة فى حاشية هذا المجال.

ويتحول الوعى من الحاشية الى البؤرة ومن البؤرة الى الحاشية بأسلوب طبيعى وبسيط كما تتم عملية التنفس .

ولا يقتصر مجال الوعى على ما هو خارج النفس ، وإنما يتناول أيضا ما هو داخل النفس ، فأنت تعى بأنك تقرأ هـذا المقال ، ويسمى هذا الوعى وعيا بالذات . وهو يلعب دورا هاما فى حياة الانسان لأنه يمكنه من أن يجعـل من نفسه رقيبا على نفسه ويوجهها التوجيه السليم . والزج الذى ينتاب الخطيب ويربكه إنما هو مظهر من مظاهر إساءة الوعى بالذات ، وقد أمكن وضع علاج لهذه الحـالة وغيرها من العيوب النفسية .

وهـذا العقل الواعى هو عقل الانتباه والملاحظة والتفكير والتروى والتذكر والتخيل والابتكار ، وهو العقل الذى يقدر به الانسان شؤون يومه ، وهو العقل الذى وضع العلوم والثقافة الحديثة . وقد لوحظ أنه رغم نضجه ورغم امتيازه بميزة الوعى ، لا يستطيع الثبات على مواصلة عمله وقتا طويلا ، فلا يمكنه طـول البقاء على الوعى لأنه لا يتحمـل التعب كثيرا .

وقد لوحظ أيضا أن مكانا ما فى النفس دائبة فى انتهاز لحظات التعب التى تنتاب هذا العقل الواعى وتغتنم فرصة غفلته ، فتقذف بخواطر تقف فى سبيل الانتباه والملاحظة والتفكير والتروى والتذكر ، وكل أساليب العقل الواعى .

وقد تكون هذه الخواطر عن وليمة كانت بالأمس ، أو عن حفل ينعقد غدا وقد دعيت اليه ، فتسوق اليك هذه الخواطر أنك قد قمت خطيبا فى المدعوين ، أو أنك جلست إلى شخص محبب اليك ، وأحيانا تسوق اليك الخواطر اكتشافا بمزية فى شخص من أصدقائك لم تكن أدركتها فيه من قبل ، وأحيانا تلح عليك حادثة ماضية فيمنع الحاحها العقل الواعى عن متابعة أساليبه .

ويقال حينئذ إن ذهنك قد شرد وأنه خطر عليك خاطر ، ومعنى ذلك أن عقلك الواعى قد تعب لأن طاقته محدودة فى تحمل الجهود ، فانتابته سنة من الغفلة وانتهزت هذه الغفلة جهة ما فى نفسك تنبع منها هذه الخواطر .

بل إن النوم نتيجة لازمة لحالة التعب التى يصل اليها هذا العقل الواعى فى نهاية اليوم ، وهو إذ يستسلم أثناء النوم الى غفلته ، يخلو الجو لتلك الجهة من نفسك التى تنبع منها أنهار الخواطر فيراها النائم أحلاما .

تلك الجهة التى تنبع منها الخواطر فى اليقظة والأحلام فى النوم ، هى العقل الباطن ثانى عقلى الانسان .

ويؤدى إدراك هذه الحقائق إلى الاهتداء لفكرة ، هى ، أن النفس مجموعة طبقات بعضها أقدم من بعض ، وأن كلا من هذه الطبقات تثبت فى النفس بنسبة رسوخها فى القدم ، وأن العقل الواعى هو أول ما يتأثر بالتعب أو المخدرات أو الصدمات لأنه أحدث طبقات النفس ، فلا يستطيع السكران مثلا ولا يطيق أن يقرأ فى كتاب علمى ، ولكنه يسوق إليك هينا خواطره ، فيحدثك حديثا مسهبا دون عناء ، ذلك لأن عقله الباطن الذى تنبع منه الخواطر — وهى مادة حديثه — لم يتأثر بالخمر ، لأنه أرسخ من العقل الواعى ، نظرا لأنه أقدم منه . وإذا توغل السكران فى سكره فانه يفقد العقل الباطن فلا يستطيع ولا يطيق أن يحدثك ، ولكنه يظل منتفعا بغرائزه التى يشترك فى حيازتها كل من الانسان والحيوان ، لأنها أرسخ من العقل الباطن نظرا لأنها أقدم منه فى النفس فهى لا تتزعزع بالمهولة التى يتزعزع بها العقل الباطن على ثباته ورسوخه . ولكن إذا أثقل السكران امتد العطل إلى طبقة الغرائز فتتزعزع هى أيضا .

ومن مقارنة العقل الواعى بالعقل الباطن يتضح أن العقل الواعى يخالف فى أساليبه أساليب العقل الباطن ، فاذا كنت مغيظا من شخص فانى فى يقظتى أتدبر الموقف ، وأرد الظواهر إلى عللها ، وقد اهتدى إلى اعوجاج ما فى شخصيته ، فأحاول أن أصلح من هذا الاعوجاج باعتباره علة

اعتدائه علىّ ، ورغبة منى فى قطع سلسلة ضحايا هذا الاعوجاج الخ... ولكنى حين أستسلم للخواطر أرانى وكأنى أضربه أو أسبه ، أو كأنى جالس وحولى أتباع وأشياع وهو آت فى ذلة ومسكنة يلتمس عفوى وصفحى ، وحين أنام أحلم بأنى أضع فى جيده حبلا من مسد وأعلقه فى شجرة ثم أجلده بالسياط حتى تتفتح فى جسمه جروح دامية تصبح وكأنها أفواه تعتذر لى ، أو أنى أجره على وجهه و يعفر التراب جبينه وألقى به فى بئر فيها تنين فظيع أو فيها أفعى لها فحيح رهيب ، أو أنى اقتله بأسنانى ، وأمزق لحمه وأشلاءه .

ويدرك المتأمل أن أساليب العقل الواعى هى أساليب الثقافة الحديثة ، وهو لذلك سمى عقل الثقافة الحديثة ، وأن أساليب العقل الباطن هى أساليب الثقافة القديمة ثقافة الغرائز الغشيمة الخام ، غرائز الإنسان الفطرى الأول ، غير أن الخواطر تجرى أكثر تلطفا من الأحلام لأن العقل الواعى يمسها من قريب أو بعيد ، وأما فى حالة النوم فليس من شك أن الوعى ينعدم تماما ، وأن العقل الباطن يستعمل كل أساليب الثقافة القديمة فى التعبير عن محتو ياته ولذلك فإنه سمى عقل الثقافة القديمة .

وهذا التدرج فى ظهور الثقافة القديمة من الوضوح والقوة فى الأحلام إلى التلطيف أو بعض التهذيب فى الخواطر الى الزوال والاختفاء وقت إعمال العقل الواعى يثير فكرة ، هى أن العقل الواعى يهيمن على العقل الباطن ، فكيف تقوم العلاقة بين العقلين ؟

للوصول الى سر هذه العلاقة نستعرض عمل كل منهما ونلاحظ أن العقل الباطن دائم العمل ففى هذه اللحظة وأنت تقرأ هذا المقال وتتفهم عن وعى كلماته ومعانيه ، فان عقلك الباطن — دون أن تعى به — يعمل هو أيضا إذ أنه يحتفظ بتقريرات مفصلة عن كل ما تمارسه بعقلك الواعى ، وقد ذهب الدكتور يونج الى أن العقل الباطن يسجل أيضا مؤثرات يرجع عهدها إلى ما قبل انفصال الطفل عن أمه ، بل وعن أبيه ! ومعنى هذا أن كثيرا من عقائدنا وأفكارنا وتعبيراتنا وأفعالنا تتكون ، بادئ ذى بدء ، فى العقل الباطن ، وقد أكد التحليل النفسى النظرية القائلة إن المؤثرات على حياة الانسان وحيويته تنبع من أعماقه ، فأحيانا ترى أحد الأشخاص فتشعر نحوه ببغض أو خوف أو تقزز أو حب ، والغالب أن هذه العواطف والانفعالات ترجع الى أن شخصا ما يشبهه قد سبب لنا فى صغرنا هذه الانفعالات فانطبعت صورته مقرونة بالانفعال فى العقل الباطن وحين مثل أمامنا الوجه المشابه للوجه المحفوظ فى سجلات العقل الباطن — نبع من الأعماق — بفضل التداعى للشبه — هذا الانفعال المقترن بمثل هذه الصورة .

فلم تكن هذه الصورة قد محيت من العقل مهما طال العهد عليها ، ومهما ظلت غائبة عنا ، ذلك لأننا مادمنا فى غير حاجة اليها نستطيع أن نتخلص منها ومما يقترن بها من عواطف وانفعالات ، وذلك لكى نستطيع أن نباشر عملنا العادى . وقد زودنا الله سبحانه وتعالى بقوة دس

هذه الصور فى العقل الباطن بغيرأن نعى بها وهى تقوم بعملها فى كبت الذكريات حيث تظل مختبئة إلى حين طلبها . فنحن ننسى منظر قطار يدهم شخصا ويقتله ونكبت ما اقترن بهذا المنظر الفظيع من الانفعالات .

وقد يكون الكبت صالحا للحيوان كذلك مثل كبت الحيوانات المنسلخة ، فالعوسة تعوم بزعانفها مادامت فى المياه فاذا انسلخت إلى ضفدع تنسى أنها كانت تعوم لكى تستطيع أن تمشى وهى ضفدع على الأرض .

وهذا الكبت هو إحدى العلاقات بين العقلين .

وتظهر علاقة أخرى بينهما مما نلاحظه أيضا فى استمرار العقل الباطن على العمل ، وفى أنه لا ينفك يدفع بمحتوياته وهى الخواطر فى اليقظة والأحلام فى النوم :

ففى اليقظة عند ما أريد الانتباه الى أمر ما أشعر انى أبذل مجهودا فى تركيز انتباهى لكى أبعد عقلى الواعى عن تيار الخواطر السائبة السارحة ، التى من طبيعتها أنها تكون سيالة ترد تباعا وبغير عناء ، بل انها تكون مصحوبة فى جريانها بسرور ، وأما إشغال العقل الواعى فيستلزم استعمال جهد لتوجيه الانتباه ونحن نعى بحالة توجيه هذا الجهد فى منع الخواطر الحائمة من الدخول فى مجال الوعى . وهذه العملية هى المظهر الثانى من مظاهر العلاقة بين العقلين . وفيها تظهر هيمنة العقل الواعى على العقل الباطن .

وأما فى أثناء النوم فتتوقف القوة الملحوظة — أى التى نعى بها — الخاصة بتوجيه الانتباه ، كما تتوقف القوة غير الملحوظة التى لا نعى بها الخاصة بالكبت . فلا يكون انتباه ، ولا يكون كبت ، ويسمى نشاط العقل الباطن أثناء تعطل هاتين القوتين حلما . ومن ذلك يتضح ان كل انسان يحلم . وعندما يستيقظ تعود كل من القوتين سالفتى الذكر المعطلتين الى العمل فورا فيكبت كل الحلم أو بعضه ويتذكر الانسان جزءا منه ويغيب عنه جزء .

صلاح الدين الأيوبى

ملاحظات عابرة :

١ — كانت لنا مطربة !

٢ — كيف نستمع للغناء !

٣ — دلالة الذوق الفنى !

(١)

مات "سيد درويش" فترك مكانه خاليا ، مكان الفنان الملهم ، الذى يتلقى من الطبيعة وحيها فيصوغه أنغاما ، ومن النفس الإنسانية خطراتها فيصوغها ألحانا ، وخلف من بعده جماعة من " المجددين ، قلدوه أولا فى التلحين والأداء فكان بينهم وبينه مايكون بين الأصيل والدخيل ، ثم بدا لهم أن يستقلوا بسرقة الألحان الأوربية وتطريتها حتى تصبح رخوة مائعة تلبى مافى إحساسهم من رخاوة وميوعة . وراحوا يتمايعون ويتضاءون بالكلمات " الملتوته" فى أفواههم كنطق البله والمعتوهين والمطعونين الذين لايملكون إخراج النفس وتبيان الحروف.

وفى أثناء ذلك البلاء الذى أصاب الغناء كانت لنا مطربة كبيرة واحدة، كنا نعتز بصوتها الرخيم القادر على إلقاء مختلف النغمات وإبراز أشتات المعانى . وكان النقص الوحيد فيها أنها لم تجد منذ ظهرت الى اليوم ذلك الملحن "الإنسان" الذى ينتفع بهذا الصوت العريض العميق ، فيصوغ له من الألحان "الآدمية" مايؤدى به وظيفته العظيمة فى هذه الحياة .

كانت ميزة هذه المطربة الكبيرة أن لها من حلاوة صوتها وقوته وعمقه مايجعلها تستغنى عن وسائل الاجتذاب الخارجة على دائرة الفن، كما تلجأ المطربات غيرها الى أنوثتهن، وأنوثتهن وحدها يبرزنها فى الأنغام ليكمل بها ما ينقصهن من الصوت وحسن الأداء .

ولكن يبدو أن القدر يريد أن يحرمنا هذه المطربة الواحدة ، فقد أشرفت على المرحلة الحرجة فى حياة المرأة ، فراحت تعمد الى ما كانت تجد نفسها فى غنية عنه من قبل، وراحت تبرز الأنثى فى نغماتها وتخفى المطربة، ثم يبتليها الله بمؤلفين يصوغون لها أغانى ليس فى معانيها إلا إبراز معنى الأنوثة المكشوفة ، فتتم الكارثة والعياذ بالله !

استمعت إلى الإذاعات الأخيرة للمطربة الكبيرة فأسفت وتألمت ، وقلبت كفى من الأسى ... لقد كانت لنا مطربة ... ... يرحمها الله !

* * *

(٢)

وقبل أن ننفض أيدينا من المطربين والمطربات ومن المؤلفين والملحنين ، يجب أن نعود باللائمة على الجمهور . فهذا الجمهور العجيب هو الذى يضج بالهتاف والتصفيق كلما تدغدغت أمامه مطربة ، أو تخنث أمامه مطرب . هذا الجمهور الذى يستمع للطربات والمطربين بكل عضو فى جسده إلا أذنه ، وبكل حاسة الا الحاسة الفنية ! هذا الجمهور الذى لاذوق له ، والذى يصيح عند كل شطرة كالأوباش ، ولا يجد نشازا فى الجمع بين صوت التطريب الذى يسمعه وصوت الحيوان الهائج الذى يرد به عليه !

منذ زمن بعيد كرهت أن أذهب الى الصالات والمسارح لسماع الغناء ، لأننى لم أكن أستطيع أن أوفق فى أذنى وحسى بين هذه الطبقات المتنافرة من الأصوات على التوالى . ولم أكن أطيق منظر هؤلاء السكارى الذين لايذهبون ليستمعوا الا بعد أن يفقدوا كل مظاهر الوعى الإنسانى .

والآن أجلس فى بعض الأحيان وراء المذياع للاستماع ، وما استطعت أن أتخيل ضجيج المستمعين عند كل فقرة ، بل بين الفقرات كذلك ، إلا صراخ القطيع الهائج ، وثورة الحيوان المطعون !

أهؤلاء آدميون ؟

أنا لا أتهكم ! فأنا أشك من أعماق نفسى فى آدمية هؤلاء الذين لا يعرفون الطرب إلا هياجا وسعارا ، ولا يستمعون إلا وغرائزهم السفلى هى التى تنوفز وتتنزى ، ولن يهيج هذه الهيجة عقب كل فقرة إلا الحيوان المكبوت المسعور الذى ينطلق من عقاله ، فيصيح ويتخبط ويصفق ، كما يصنع هؤلاء المستمعون !

ودليلى على ذلك أن هذا الهياج المسعور يبلغ أقصاه عند ما تند عن المطربة أنة الأنثى وتوجعها ، أو تصدر عن المطرب دغدغة متميعة ، فهنا تتفجر تلك البهيمية المكبوتة التى أطلقها السكر من عقالها وهاجتها هذه الأنات والتميعات .

* * *

(٣)

والعجيب أنك لا تكاد تستخلص من هذا الشعب كله واحدا فى الألف يفطن إلى هذه المعانى . وهذه كارثة . فدلالة الذوق الفنى على مدى الرقى الإنسانى دلالة لا تكذب . فهذا الرجل الذى يدعى لنفسه وتدعى له شهاداته الثقافة ثم يخط ذوقه الفنى إلى مثل هذا المستوى تستطيع أن تجزم وأنت مستريح أن دعواه ودعوى شهاداته كاذبة من الأساس .

وأنت تجد بين هـذا التقطيع الهائج : المهندس والطبيب والمدرس وطالب الجامعة وريح التجارة و ... ... وكل هذا محتمل ، لولا أنك تجد من بينهم أيضا بعض الأدباء والشعراء والفنانين ... يا للكارثة ! إن الأدباء والشعراء والفنانين هم خلاصة الانسانية فى كل حين ، فكيف يخدرون فى مصر إلى هذا الحضيض ؟

إننى حين أنظر من هذه النافذة إلى الشعب المصرى يدركنى يأس عميق من مستقبل هذ الشعب كله ، ولا يوصوص لى الرجاء إلا حين ألتقى بالأفراد القلائل المرتفعين عن هـذه الوهدة ، والذين المح فى إحساسهم وتقديرهم الفنى شعاع الآدمية المضىء ! .

وسيعتمد أناس فى قياس نهضة الشعب على إحصائيـة المتعلمين ، وعلى نمو الحركة الصناعية ، وعلى عدد السيارات والتليفونات والراديوهات ... إلى آخر ما يتخذه الباحثون الاجتماعيون من أنواع الإحصاء ليقيسوا بها حضارة شعب من الشعوب .

أما أنا فسأعتمد على مقياس واحد لا يخطئ هو الإحساس الفنى فى نفس هذا الشعب . الإحساس بالغناء والموسيقى والتصوير والنحت والأدب وسواها . لن تخدعنى العربة الفاخرة والكسوة الأنيقة والشهادة العلمية والخبرة العملية فطالما وجدت وراء هذه المظاهر جميعا حيوانا فى إحساسه النفسى ، أو عاميا فى ذوقه الفنى ، وتلك هى العلامة التى لا تخطئ فى جميع العصور .

والمصيبة أن هذا الذوق العامى ليس قاصرا على الغناء ، بل يشمل جميع الفنون ، وإنك لتجد فى بعض الأحيان مخلوقات عجيبة من أولئك الذين تدعى لهم شهاداتهم العلمية أنهم مثقفون ، ثم تستمع لآرائهم فى الأدب أو الموسيقى أو الغناء فيخيل إليك أن هـذه الملابس التى يرتدونها ملابس تنكرية ، وأن فى داخلها صعلوكا من الصعاليك .

أنا لا أطلب من كل إنسان أن يكون أديبا أو شاعرا أو عارفا بأصول الموسيقى والغناء ، ولكنى أطلب ذوقا فنيا يعتمد على حس سليم ، فلن يكون إنسانا ذلك الذى يفقد هذا القدر من الإحساس الطبيعى الأصيل .

والواقع أن تربيـة الذوق الفنى عندنا متروكة للإهمال ، لا يعنى بها أحد فى البيت ولا فى المدرسة ولا فى الأدب الذى يدرس بالمدارس ، وهو وحده يختاراته كفيل بإفساد كل ذوق سليم .

رأيت فى كتاب من كتب البلاغة المقررة فى المدارس الثانوية البيت التالى :

والورد فى شط الخليج كأنه رمد ألم بمقلة زرقاء !

فقلت فى نفسى : معقول إذن أن يعجب المصريون بالمطربين والمطربات المصريين . نقد تلقوا أصول الذوق الفنى من الورد الذى يشبه الرمد فى العيون !

ولله فى خلقه شؤون !

"س"